ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

قبيلة بني حسّان
نموذج للتمازج العرقي في قبائل شمال المغرب



أحمد الحبشي
باحث في تاريخ وحضارة شمال المغرب المتوسط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان
جامعة عبد المالك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّص

اقتحام مبحث تاريخ القبائل بشكل عام أمر ليس بالهيّن، فطبيعة الذاكرة في القرية يغلب عليها الحفظ الشفوي وتفتقر إلى زخم الأحداث لغلبة "الروتين" واستقرار الحياة، فهي بذلك تختلف بشكل كبير عن نظيرتها في المدينة، وإن كانت الثانية لا تخلو من معلومات عن الأولى، فذاكرة المدينة وما تعرفه من وتيرة سريعة في النمو والحركة، فضلاً عن تمركز المؤسسات السياسية والعلمية بها ما حظّها بأفضلية توسيع الذاكرة وغنى الأحداث التي تتضمن أحيانا بعض الجوانب المرتبطة بالقرى ومن ثمّ القبيلة. قبيلة بني حسّان التي تقع في الشمال الغربي للمغرب الأقصى تجسّد هذا الفقر في الذاكرة المدوّنة في مقابل غنى الذاكرة الشفوية إلى حدّ ما، إذ هي الأخرى تحوم حول وقائع ومَرويات محدودة تحمل ما تحمل من التخيُّل والتحريف. حاولت في هذا المقال استخراج ما استطعت من نصوص وإشارات مبعثرة في صفحات بعض المصادر، وكما استندت إلى بعض الروايات الشفوية محاولاً تركيب نبذة تاريخية محقّقة لتجربة هذه القبيلة في عملية التمازج والانصهار التي حدثت في تاريخها بين ثقافات وأصول متنوعة (الأمازيغية، العربية، الأندلسية)، وذلك بتتبع أصول –نماذج- من أسماء بعض العائلات المعروفة بالقبيلة ومن خلالها الارتقاء إلى الأصول الكبرى، كما ساعدنا استخدام منهج المقارنة والترجيح في استخلاص بعض الآراء المتعلقة بطبونوميا الأماكن ودلالة بعض الكلمات، ثمّ عرّجنا على ذكر أهم المآثر العمرانية الموجودة بالمنطقة، ووقفت في المحور الأخير عند مساهمة أهالي بني حسّان في مقاومة الاستعمار الإسباني وما أبلوه من شجاعة وإصرار فريد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٧	مارس	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

شمال المغرب؛ القبيلة؛ بني حسان؛ الأصول؛ الأمازيغ؛ الأندلسيين؛ العرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167765

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد الحبشي. "قبيلة بني حسان: نموذج للتمازج العرقي في قبائل شمال المغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٩٥ – ١٠٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elhabchiahmed51@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

تستحق قبائل شمال المغرب من الناحية التاريخ الكمّي والأنثروبولجي إلى أعمال أكثر دقّة فيما يتعلّق بجمع المعلومات (الوثائق المكتوبة والشهادات الشفوية) وتحويلها إلى مادة مضبوطة منهجيا ومرتبة ترتيبا علميا محكمًا، إذ البياضات الموجودة في تاريخ هذه القبائل أكثر ما تظهر في المواضيع المرتبطة بأصولها، ويرجع السبب إلى صعوبة التنقيب في هذا المبحث وندرة المادة التاريخية. السطور الآتية محاولة أكاديمية التمست تناول جوانب من تاريخ قبيلة بني حسّان التي تقع بين مدينتي تطوان وشفشاون، بتجميع وتدقيق بعض النصوص المصدرية وكذلك تحليلها ومقارنتها بقرائن أخرى، فكان المنطلق التساؤل عن الملامح المميزة لهذه القبيلة؟ وكيف تفاعل أهلها مع جغرافية المكان الذي استوطنوه؟ وما هي أصول سكانها وبعض من أخبارهم في التاريخ؟

تُعَدّ قبيلة بني حسان من القبائل الجبلية الذائعة الصيت بشمال المغرب، فهي تتواجد جنوب إقليم تطوان، تحدّها من الجنوب قبيلتي بني حزمر وبني سعيد ومن الغرب بني ليث وبني عروس أما من جهة الشرق فقبيلة بني زجل الغمارية وجنوبا قبيلة الاخماس، وتتكون من ثلاث جماعات قروية "الحمراء، الواد، ولاد علي منصور" منهم من يضيف جماعة بني ليث إلا أنّ هذه الأخيرة يميل أهلها إلى اعتبارها قبيلة قائمة بذاتها كانت تحسب قبل الاستعمار على قبيلة بني حزمر[١]، يمتد موضعها – قبيلة بني حسّان-على مساحة شاسعة تقدر بـ ٣٦٦ كلم مربع[٢].

يغلب على مورفولوجيتها المرتفعات الجبلية والهضاب، وتنتصب في مجال القبيلة أعلى ثلاث قمم جبلية بإقليم تطوان: جبل كلتي ١٩٢٦ متر، جبل عليويين ١٨٤٧ متر ثم جبل حافة زلطان ١٨٢١ متر.عدد سكانها يقدر ب ٢٧٠٠٠ نسمة حسب الإحصاء الرسمي لسنة ٢٠١٤. وتتكون التشكيلة السكانية بالقبيلة من ثلاث فرق: (١) فرقة بني علي: التي تطابق حدود جماعة "الحمراء" القروية حاليًا مما يلي السوق الأسبوعي الشهير بالقبيلة المسمى بـ "أربعاء بني حسان".(٢) فرقة "الخمس": التي تطابق حدود جماعة "أولاد علي منصور" في سفح الجبلين المذكورين أعلاه مما يلي حدود قبيلة بني سعيد. (٣) فرقة "بني مهارون": التي تطابق حدود جماعة "الواد" القروية الحالية التي تجاور حدود بني زجل والأخماس.

أولاً: أصول قبيلة بني حسّان من خلال نصوص مصدرية

١/١-الروافد العامة لأصول بني حسّان

تتموضع قبيلة بني حسان ضمن مجال قبائل جبالة حاليا، هذا المجال الذي يقع بين منقطتين معلومتين هما: غمارة والهبط[٣]، فيما كانت القبيلة من قبل تحسب على المجال الترابي لغمارة[٤]، وبما أن هذه الأخيرة بطن من بطون مصمودة التي تنحدر من شعب البرانس (أحد أكبر شعوب الأمازيغ في شمال إفريقية)[٥] فإن السؤال الذي يُطرح ما إذا كانت قبيلة بني حسّان ذات أصل أمازيغي؟ أم أنّ تواجدها الجغرافي في نطاق كان تابعًا للقبائل القديمة بالمغرب لا يعني بالضرورة انتماء أصولها –بني حسان-إلى هذه الجذور الأمازيغية؟

لا يختلف اثنان في أن اسم قبيلة بني حسّان عربيّ الأصل "فحسّان" من الأسماء العربية المشهورة، وهنا وجبت الإشارة إلى أن بنو حسان تطلق أيضًا على عرب معقل الذين استوطنوا جنوب البلاد في خضم هجرات قبائل بنو هلال إلى المغرب خلال منتصف القرن الحادي عشر، وأيضا بجهة الغرب المطلّ على ساحل المحيط الأطلنتي تتواجد قبيلة بني حْسن- ينطقها أهلها بتسكين التاء- الذين يعود نسبهم هم الآخرون إلى معقل العربية[٦]، إلاّ أننا لا نتوفر على شواهد تثبت علاقة آصرة بين قبيلة بني حسّان والقبائل الشبيهة لها في الاسم التي تمت الإشارة إليها.

بخصوص أصول قبيلة بني حسّان ونسبها فإننا نفتقر إلى نصّ أو وثيقة واضحة تتناول هذا الأصل بشكل مباشر، وأقدم من يُرجّح أنه أوّل من ذَكر القبيلة هو الجغرافي الأندلسي البكري الذي عاش خلال القرن الحادي عشر الميلادي، حيث يتحدث عن جماعة يسمّيهم ببنو حسين يسكنون ببلاد غمارة "وجبل درقة يتصل ببلاد غمارة ويسكن آخره من بنو حسين بن نصر، ثم نهر راسن، ومنبعثه من موضع يعرف بتطسوان من جبل حميم"[٧].

هذا النصّ لا يغيّر من فهمنا الأَوّلي لاسم القبيلة إذ يربطه باسم عربي آخر هو بن نصر إلاّ أنه يبقى ملتبسًا، ويُحتمل أن "بنو حسين" هؤلاء ليسوا بالضرورة هم بنو حسّان الذين نتناول أصولهم بالدراسة، غير أن جبل حميم هذا ليزال موجود في مجال فرقة الخمس بقبيلة بني حسّان فيكون الوصف لهم هو الأقرب للاحتمال، ثم يأتي ابن خلدون في القرن الرابع عشر ليتحدث عن القبيلة بالاسم المعروفة بها الآن وهو بنو حسّان في معرض تِعداده لبطون غمارة: "إذ كان بنو حسّان منهم موطنين بذلك

الساحل من لدن أزغار وأصيلا إلى أنفى، ومن هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودكالة.."[٨].

ويبدو من هذا النصّ المصدري الذي لم يكشف سرّ أصل القبيلة، بل هو الآخر أبقى على النقيضين اللذين اجتمعا في تاريخها وهما اسمها العربي واعتبارها بطن من بطون قبيلة غمارة الأمازيغية. لكن هذا لا يمنع من الخلوص إلى افتراض ملحّ مفاده طابع العروبة الذي اكتسته قبيلة بني حسّان في بعض ملامحها العامّة بعد الدخول الأوّل للعرب المسلمين يأتي على رأسها اسم القبيلة العربي، وما يثبت هذا الاتصال بين العرب الأوائل الذين دخلوا إلى المغرب وبين الغماريين هو مسجد البيضاء أو مسجد الملائكة الذي يُنسب أمر بنائه إلى موسى بن نصير نتحدث هنا عن أواخر القرن الأول الهجري والقرن السابع ميلادي[٩]، ومن المعلوم أن هذه القبيلة لهجتها عربيّة تتخللها كغيرها من قبائل شمال المغرب ألفاظا أمازيغية قليلة وهذا التأثير العربي لعلّه قد تمّ في مراحل مبكّرة من التاريخ حيث يصعب تحديده بدقّة، وازداد ترسخا مع توالي الأحداث المساعدة من هجرات قبائل عربيّة وافدة إلى المغرب وما حصل من امتزاج بين الثقافة المحلية والثقافة الوافدة أدى إلى انحصار الآثار اللغوية الأمازيغية –كحال معظم القبائل التي تعرّبت- في "صفات حيوية خاصة أو بضع كلمات تعبّر عن بعض المهن أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان ونبات وأسماء أعلام"[١٠].

٢/١-فرق قبيلة بني حسان وأصولها

يتبيّن من البحث الأوّلي أننا أمام مجموعة سكانية طَبَعَها مظهر التنوع في مرحلة مبكرة لم تُبيّنها المصادر بشكل واضح وعليه نتوجه إلى طريق آخر للبحث في أصول هذه القبيلة وهو الانطلاق من النسب نزولا إلى الأصل وليس العكس. لذا سنحاول –بقدر المتاح-تتبع بعض الأسماء العائلية المعروفة والتي وردت في مصدر من المصادر ومن ثمّ استخلاص أصل من الأصول. وفي العموم تتشكل الأقسام الكبرى لفرق قبيلة بني حسّان مما يلي[١١]:

فرقة بني علي	• بني عمران، بطارة، بواتو، أزمور، أشكراذ، بني موسى، أفقرن، إسماتن، الواذيين.
فرقة الخمس	• ماجو، أولاد علي منصور، بني صابر، السكن.
فرقة بني مهرون	• جماعة الواد، جماعة إسلان، جماعة إدمامن، جماعة أشروطة، جماعة الغابة، جماعة إهلال، جماعة تغزوت.

قبل الشروع في عملية تتبع الأصول تدقيقًا وتفصيلاً لابد من الإشارة إلى أمر مهم هو أنّ أسماء الفرق والمداشر في هذه القبيلة لا تقتصر على أصل دون آخر، أي أن حركة الجماعات والأفراد حالت دون الحفاظ على أصل خالص في مكان معيّن، وبالتالي يطبع هذا الفرق طابع التنوع والتمازج في الأصول والأنساب إلى حد بعيد.

(٢/١) ١-الأصول الأمازيغية

الأصول الأمازيغية لبني حسّان يشوبها الغموض ويعسر على الباحث تحديدها من منطلق النسب كما هو الحال مع نظيرتها العربية، إلا أن أسماء بعض المداشر تنمّ عن لكنة أمازيغية غير خفيّة (أشكراذ، إسماتن، إدمامن، السكن، إسلان..)، والنظر إلى الحقيقة الكليّة لتاريخ القبيلة وموضعها الجغرافي زيادة على انتمائها إلى الحلف الغماري في العصر القديم والوسيط يحتّم باستمرار النسل الأمازيغي في هذه القبيلة، ومن الدلائل القليلة الموثِّقة لهذا الأصل وجود تقاييد تعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي ذكرت أسماء عائلية ك"المجكسي" وهي إحدى القبائل الغمارية الأصيلة[١٢]، بالإضافة إلى "امصمود" الاسم العائلي الذي يرجحّ نسبته إلى قبيلة مصمودة الشهيرة، وهناك من يعتبر أن فرقة بني مهرون تأوي نسلا من محمد ابن أبي الطواجين الكتامي (نسبة إلى كتامة إحدى بطون البرانيس الأمازيغية) الذي ادعى النبوة واستقرّ أنصاره بالقبيلة بعد مقتله[١٣].

(٢/١) ٢-الأصول العربية:

من الأنساب العربية التي يَثبت وجودها في القبيلة بل ويعطيها خاصيّة وميزة بارزة من بين قبائل جبالة هو النسب العمراني الشريف، فالعمرانيون ينتصفون إلى فرقتان: أولاد حنين وأولاد سيدي عتيق، وهما أخوان، إبنا سيّدي يحيى بن سعيد بن مسعود بن عامر بن عمر بن موسى بن عمران، بن يزيد بن صفوان بن خالد بن يزيد بن عبد الله ابن مولانا إدريس[١٤]. والفرع العمراني الذي استقرّ في قبيلة بني حسّان يجسّده نسل أولاد سيدي عتيق في عدد من مداشرالقبيلة: أولا ابن عبّو (بالجامع البيضاء)، وأولاد اشعرّوا، وأولا الحرّاق، وأولاد أفاسي (مدشر هلال)، وأولاد بوتّو بها، وأولاد الغندور، وأولاد زكري، وأولاد دقّاش (بالجامع البيضاء)، وكذا أولاد الحمّال، وأولاد الزغلي[١٥].

ومن الأنساب العربيّة نجد البقاليين الذين ينحدر منهم المفتي والمدرّس الطيب بن عبد السلام البقالي وموطنهم مدشر امحراشن من قبيلة بني حسان[١٦]، بالإضافة إلى الشرفاء

العالميين الذين قدموا من منطقتي بني عروس وتلمبوط، هؤلاء الوافدين التسموا مستقرا لهم في رحاب فرقة بني علي[١٧].

(٢/١) ٣-الأصول الأندلسية:

إضافة إلى ما سبق يعتبر الرافد الأندلسي من المكونات الرئيسة للعنصر البشري في قبيلة بني حسّان، فهذه الأخيرة بحكم موقعها الجغرافي إلى جانب باقي القبائل القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط تحتّم عليها أن تكون جزء من أحداث فتح الأندلس وما تبعها من حركة بين العُدوتين استمرت حوالي ثمانية قرون، إذ كان جلّ جيش موسى بن نصير وطارق بن زياد من هذه المناطق.

للرحالة الحسن الوزان نصّ يشير إلى هذه العلاقة في معرض حديثه عن علي بن راشد مؤسس مدينة شفشاون الذي ينسُبه إلى قبيلة بني حسّان[١٨] (وفي معلمة المغرب نجد أنه ينتمي إلى مدشر إيناروزيم بقبيلة الاخماس؟)[١٩]، وكيف اضطرّ إلى الهجرة للأندلس خلال أواسط القرن الخامس عشر الميلادي بسبب قمع تعرّض له بمعية أهله من قبل "بعض مواطنيهم"، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الأحداث التي تسببت في هجرته لكن يمكن الحديث في هذا الصدد عن صراعات غامضة مع قبيلة بني عروس المجاورة، هذه القبيلة التي يُخص أهلها دون باقي قبائل شمال المغرب بلقب "الشرفاء" أو "الأشراف" كما سمّاهم حسن الوزان. على العموم الشاهد في هذا النص هو تلك الإشارة لإمكانية التنقل من بادية شمال المغرب نحو الأندلس لسبب من الأسباب سواء كان قتالا أو بحثا عن الاستقرار أو طلبًا للعلم.

بعد سقوط المدن الأندلسية تباعًا وآخرها كانت غرناطة سنة ١٤٩٢م، بدأت هجرات الأندلسيين هروبا من الزحف الكاثوليكي واستقرّ عدد كبير منهم بالمدن والبوادي القريبة من المتوسط، هذه الهجرات المتتالية استمرّت إلى الطرد النهائي الذي لحق الموركسيين سنة ١٦٠٩م. من بين القبائل التي استقرّت بها العائلات الأندلسية قبيلة بني حسّان، ما أوهم البعض إلى حد اعتبار هذه القبيلة كلها أندلسية وهي مبالغة تنطوي على حقيقة مكنونة تستدعي التدقيق والتمحيص[٢٠].

وتتجلى أسرة الأزرق كأنموذج للعائلات الأندلسية التي استقرّت بالقبيلة، وقد انتقل الأندلسيون الذين يحملون هذا الاسم إلى عدد من المدن المغربية (فاس، رباط، سلا)، كما توجد نصوص تثبت انتقال بعض أفراد هذه العائلة من بني حسان إلى تطوان حيث أقاموا بحامية تطوان خلال القرن التاسع عشر الميلادي ولتزال هذه الأسرة بالمدينة[٢١]، ويبقى إثبات الأصل الأندلسي لبعض العائلات بقبيلة بني حسّان يحتاج مجهود بحثي متريث حتى يتسنى جرد أعدادها وحصرها.

ثانيًا: حركة قبيلة بني حسان في المجال وعلاقتها بالقبائل المجاورة

سبق الإشارة إلى نص ابن خلدون الذي وصف امتداد مجال قبيلة بني حسّان إلى السهول الساحلية حتى تصل إلى حدود تامسنا حيث القبائل البرغواطية، إلاّ أن هذا الأمر سيتغير مع حلول قبائل العرب الهلالية في مجال بلاد الهبط، وذلك أيام حكم عبد المؤمن الموحدي خلال القرن الثاني عشر الميلادي[٢٢]، إذ اضطرّت قبيلة بني حسّان أن تقلّص من مجالها لا أن تنتقل إلى موطن جديد، فالموضع الجغرافي الحالي للقبيلة -جنوب شرق تطوان- ثابت أنه كان موطنها القديم وتشهد بذلك المآثر العمرانية التي تعود إلى القرن الهجري الأوّل/القرن السابع الميلادي، وكذلك الأحداث التي تمحورت حول المتنبئين حاميم (ق١٠م) وابن أبي الطواجين (ق١٣م) اللذان ظهرا في المنطقة وأحدثا بها وقائع نقلتها أغلب المصادر التاريخية التي تحدثت عن تاريخ المغرب، وكانت القبيلة جزء من هذه الأحداث ولم تخلو تفاصيلها من ذكر المناطق والقبائل المجاورة كجبل العلم وبني عروس وبني سعيد.

عدا هذا التقلص في المجال لم تعرف قبيلة بني حسّان تحركات جماعية كبيرة، أما على مستوى الحركة الفردية لشخصيات وعائلات من القرية فهي ملحوظة وموثّقة، بادية الأثر، تجّسدت في انتشار الحسّانيون –نسبة إلى بني حسّان-في معظم القبائل المحيطة بها واستقرّ آخرون ببعض المدن الشمالية، وكان هذا الانتقال نتيجة لطلب الرزق أو بغرض طلب العلم والتدريس إلخ. فعلى مستوى القبائل الأخرى يمكن إيراد أمثلة عن بعض العائلات العمرانية التي اتخذت ألقاب تميزها عن أقربائها كأولاد يعقوب وأولاد النجار، حجاج..، وانتقل بعضهم من بني حسان إلى القرى القريبة سماتة وبني يدر وبني مسارة وبني سعيد..[٢٣]، والبعض اختار أن يبتعد شيئًا ما عن القرى المحيطة كشخصية الحسوني أب الفقيه عبد الله بن الحسن الخالدي الذي هاجر في بداية القرن ١٧م، إلى قبيلة اسلاس (تبعد عن إقليم تاونات ب ٣٥كلم) وبقي نسله هناك[٢٤].

واستقرّت عدد من العائلات الحسانية في مدن الشمال كتطوان وطنجة وأُطلق على بعض هذه العائلات لقب الحسّاني[٢٥]، فضلاً عن تواجد الكثير من العائلات -كأسرة الشيخ وأولاد النجار وغيرهما-في مدينة شفشاون ذات الأصل الحساني

نظرا لقربها من القرية. ولايفوتنا أن نشير إلى ارتفاع وتيرة هجرة القرويين نحو المدينة بشكل عام كظاهرة في المغرب خلال القرن العشرين وقبيلة بني حسان ليست استثناءً في هذا الأمر، حيث أمست هذه القبيلة من أهم الروافد التي مدّت مدينة تطوان ومدينة شفشاون بأعداد كبيرة من السكان استقروا في هذين المدينتين على وجه الخصوص وفي باقي المناطق الحضرية بشمال المغرب.

ثالثًا: بني حسّان في متن الرحّالة الأوربيين

تُمكننا بعض نصوص الرحالة الذين عبروا من بني حسّان من بلورة صورة عن هذه القبيلة من وجهة نظر أجنبية، بواسطة هذه الأوصاف التي اهتمت بجوانب عدة نستشف آراء وانطباعات بل وحقائق ذات ملمح خاص، كما يُلفت -القارئ لهذه النصوص-اهتمامهم الفريد بالجانب الطبيعي وافتتانهم بمناظرها الخلابة، إنها رؤية الآخر التي ترى ما لايراه أهل المكان حيث تتجرد هذه الرؤية من النمطية فترى كل ما هو عادي عند أهل القبيلة غريب وعجيب.

في صيف سنة ١٨٨٣م، زار الرحالة الفرنسي شارل دو فوكو قبيلة بني حسان، القبيلة "التابعة للمخزن"[٢٦]، وفي هذا تأكيد على انضواء القبيلة تحت لواء الإيالة الشريفة أي السلطة المركزية بالمغرب. ولا يُخفي الرحالة إعجابه بالمنظر الساحر لجبل بني حسان حيث "تتدرج حقول القمح على جانبه تكسوه انطلاقًا من الصخور التي تتوجه حتى نهاية الوادي، غطاءً ذهبيًا، تلمع، وسط حقول القمح" وانتشار ما عبّر عنه "بآلاف القرى المحاطة بالحدائق التي ما هي إلا حياة وثروة وطراوة" وفي ثنايا وصفه للمكان يذكر أصناف من المزروعات كانت سائدة في ذلك التاريخ كأشجار التين والكروم الرمان والمشمش زيادة عن كونها أرض غنية بالمياه، ثم نجده يشهد لسكان هذه القبيلة "بكثرة الاجتهاد في التحصيل"[٢٧] ما يعني أنهم سكان نشطين مجدين في عملهم.

وجهة نظر أخرى نلتمسها في كتاب المغرب المجهول لمؤلفه موليبيراس، هذا الأخير الذي كلّف محمد بن طيب (الدرويش) بمهمة اكتشاف المغرب المجهول بين ١٨٧٢ و١٨٩٣م، وصل الرحّالة إلى منطقة بني حسان في فصل الشتاء وزوّدنا بمعلومات عن بعض أنواع الألبسة التي يستعين بها رجال ونساء المنطقة لمقاومة درجات الحرارة المنخفضة في هذا الفصل، "فإن الرجال يرتدون ملابس كثيفة من الصوف الأسود، ومن أبرزها الجلابة القصيرة التي تصل إلى الركبة بالنسبة للرجال والحايك المشدود بحزام (...) بالنسبة للمرأة، وتنتعل هذه الأخيرة "بوعفاس" وهو يتشكل من نعلين وحزام يوضع حول الساق"[٢٨].

وأمّا أصناف الطعام التي وجدها فهي البيصار[٢٩]–والتي لازالت المنطقة مشهورة بها-والبلوط والأرجال وبعض السمك[٣٠]، وبخصوص السمك أورَدَ أنهم يشترونه من قبيلة بني سعيد التي تطلّ على البحر، وهي معلومة مهمة ذات قيمة اقتصادية وتعبّر عن جانب من جوانب العلاقة التي كانت تربط القبيلتين.

ولم ينسى هو الآخر كسابقه إتاحة حيز من وصفه لجغرافية المكان الملفتة بغطائها النباتي "القرى بشساعتها، غابات السنديان والبلوط والحور والعرعر" وأنواع المواشي "الماعز والعجول والقليل من البغال" بالإضافة إلى الحيوانات التي يصيدها أهل القرية (النمس، الحجل، بنات أوى والثعالب والأرانب) والتي كانت مصدرًا رئيسًا من مصادر التغذية التي اعتمد عليها أهل القرية نظرًا لغياب سهول بالمنطقة توفر محاصيل زراعية متنوعة وما يزيد مصادر التغذية قلّة، تباعد القرى الذي يحدّ من إمكانيات التبادل التجاري، لذلك كان الصيد مصدرًا للتغذية بالغة أهميته إلى وقت قريب.

ومن الأشياء الفريدة التي امتاز بها صاحب الرحلة تطرقّه لانتشار ظاهرة هداوة[٣١] في قبيلة بني حسّان، "حيث يقوم بعضهم بمعاشرة هداويات ثم الالتقاء بهن عن طريق الصدفة، فتثمر هذه العلاقة ذرية من الهداويين الصغار وهم متسولين جوالين وأعداء للنظافة مثل آبائهم"[٣٢].

وأما فيما يخص بعض الحكايات التي كانت متداولة بين أهل القبيلة، ما سمّاه أسطورة "الأثر الرائع للرِجل اليمنى لمولاي عبد السلام بن مشيش" حيث حطت الرجل اليمنى لهذا الولي الصالح على صخرة بغابة تاينزة وهو في طريقه إلى مكة تاركة أثرًا بعمق ٨ سنتيمترات، (وتذكر الأسطورة أنه كان يقطع في كل خطوة ما بين ١٠ و١٥ كيلومتر) وظلت القدم مرسومة بشكل واضح على الصخرة، ثم بَنى فيما بعد أهالي المنطقة سورًا حجريًا حول هذا المكان الذي أصبح مزارًا للورعين، طبعًا مثل هذه المرويات لم تختص بها قبيلة بني حسّان دون باقي القبائل المغربية في ذلك العهد، وإنما هي لمحة عن طبيعة الذهنية التي سادت تلك المرحلة من التاريخ، ذهنية جَمعية تُعلي من شأن الصالحين وتنسج من فرط الحبّ لهم على لسان العوام قصصًا خارقة من خلالها يُنسب لهم أفعال مُعجزة يُطلق عليها "الكرامات"، وهذه المَرويّة تُخفي إرادة القبيلة أن يكون لها حظ من بركات "عبد السلام بن مشيش" القطب، دفين جبل العلم، وتظفر بشيء

من الحظوة التي تحظى به قبيلة بني عروس جارتها، والظفر بقصة من هذه القصص التي ينشأ عنها جلب الشرف لمنطقة ما كان بالغ الأهمية عند المجتمع المغربي كافة الحضري منه والبدوي في المغرب قبل الاستعمار وبعده بقليل حيث ستستبدل ذهنية المجتمع هذه القيم والعادات بأخرى.

وبالنسبة للقوات المحليّة التي كانت موجودة في قبيلة بني حسّان إبان العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر الميلادي فقدّرها محمد بن طيب بـ ٢٥٠٠ من المشاة لبني حسان وبني ليث مجتمعتان، أما العدد المحتمل للسكان فهو ١٧٥٠٠ نسمة[٣٣].

رابعًا: بعض المآثر الدينية

الجامع البيضاء أو جامع البيضا من أقدم المساجد في شمال إفريقيا كلها حيث ينسب بناؤه إلى القائد موسى بن نصير أواخر القرن الأول الهجري، يتربع هذا المسجد فوق ربوة عالية قريبة من سوق الأربعاء، من الراجح أنه قد رُمّم في فترات سابقة. من العلماء الذين زاروا هذا المسجد الحسن المصباح أوائل القرن الثامن عشر الميلادي وقال "أن سكان القرية يُجمعون على أن موسى بن نصير هو الذي بناه"[٣٤]، وقد أصبح هذا المسجد مهجورًا منذ أواسط القرن الماضي.

زاوية سيدي عيسى الحاج: يقع ضريح الولي الشهير عيسى الحاج بن علال الحاج الكبير البقال (ت١٦٦٩) في مدشر "بني صابر" في سفح جبل كلتي، وفوق تلة صغيرة، جد الفرع المعروف بـ "عيساوة" من الأسرة البقالية الشريفة، ويُعَدّ هذا الضريح مزارا لأهالي بني حسان والقرى القريبة في موسم خاص من السنة.

زاوية سيدي علي البختي: تقع في سفح جبل كلتي ويأتيها الزائرون من المداشر المجاورة.

جامع مولاي عبد السلام: وهو عبارة عن زاوية وفي نفس الوقت جامع يقع قرب مدشر "تامثلت"، يُجلّونه الأهالي بشكل كبير وتذكر الروايات الشفهية أن القطب عبد السلام بن مشيش درس في مرحلة من عمره في هذا المسجد ولذلك لازال إلى حد الآن يعتبر أحد أكبر معاهد تحفيظ القرآن في منطقة شمال المغرب.

منازل بني خجو: وهي مجموعة من الديار العتيقة الواقعة في مدشر "أحجة" في فرقة بني امهارون بالقرب من حدود قبيلة بني زجل الغمارية ومركزها "تلمبوط" وهي ديار أسرة "ابن خجو" العلمية الشهيرة، التي يعد أبو القاسم بن علي بن خجو الخلوفي الحساني (ت. ٩٥٤١م) دفين فاس أبرز أعلامها.[٣٥]

خامسًا: قبيلة بني حسّان والمشاركة في مقاومة الاحتلال الإسباني

بعد خضوع المغرب للحماية الثنائية –الفرنسية والإسبانية- أُلحقت مناطق شمال المغرب بالتتابع للإدارة الاستعمارية الإسبانية، كانت قبيلة بني حسان وبحكم وُعورة موقعها الجغرافي من المناطق التي تأخر إخضاعها إلى أن قاد الجنرال برنكير قواته المسلحة من مختلف الجهات نحو مدينة شفشاون فاقتحمت جيوشه أرض قبيلة بني حسان، وفي شهر شتنبر ١٩٢٠ احتلت سوقها – سوق الأربعاء-ثم تقدمت الجيوش فاحتلت مركز دار أقوبع"[٣٦].

ويَظهر من رسالة بعثها الصدر الأعظم بالحكومة الخليفية (نسبة إلى خليفة السلطان في المنطقة الخاضعة للاستعمار الإسباني) في شهر نوفمبر ١٩٢٤م، إلى مجموعة من قبائل جبالة وفيهم قبيلة بني حسّان أنّ أهل هذه الأخيرة كانوا منخرطين بشكل كبير في عمليات المقاومة إلى درجة اضطرار المقيم أن يرفع من سقف تهديداته حيث كان يلوّح بـ"هدم مدينة شفشاون، وتخريب كل ما ظهر فيه فساد من القرى والمداشر"[٣٧] حسب وصف صاحب الرسالة، إلاّ أن العامل الجغرافي –تضاريس الجبال والمرتفعات الوعرة- واصطفاف أهل المنطقة إلى جانب المقاومة وقفا حجر عثرة أمام خطط الإسبان لإخضاعهم، ما شجّع المقاومة على الرفع من حماسها وكسر هيبة قوات الاستعمار في هذه السنوات.

وفي سياق الانتصارات التي كانت تحققها المقاومة الريفية والجبلية خلال أوائل العقد الثاني من القرن العشرين وعلى رأسها هزيمة الجيش الإسباني في معركة أنوال ١٩٢١م بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، طالب الرأي العام الإسباني بالخروج من المغرب وبإيقاف "حرب لا فائدة منها" كما جاء في إحدى الصحف الإسبانية، فما كان أمام الجنرال ريفيرا إلاّ أن يُقرّ الانسحاب من المناطق الداخلية بشمال المغرب والاكتفاء بحماية الموانئ[٣٨]، وأثناء عملية الانسحاب التي واكبتها احتياطات كبيرة وتخطيط حذر وقعت معركة أشروطة أو عين الحمراء، وتعرف عند الإسبان بمعركة خندق الموت بقبيلة بني حسان يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، وعلى غير ما توقع الإسبان كان جنود المقاومة الذين اجتمعوا من معظم القبائل الجبلية وبعض القبائل الريفية في انتظار عبور الجنود الإسبان من قبيلة بني حسان، فقاموا بمحاصرة جيش الاحتلال وباغتوه بهجمات كبّدته خسائر كبيرة (مقتل الجنرال سيرانو وستة من

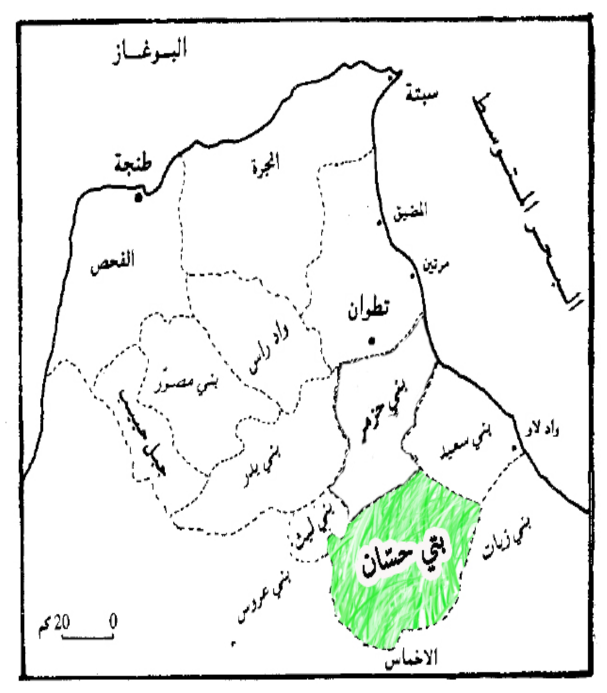
الكولونيلات، وثمانية من الكومندرات، ومائة وخمسة وسبعين ظابطًا وحوالي ٧٠٠ جندي[٣٩].

ولعل هذه المعركة كانت من الأسباب الكامنة التي دفعت الجيش الإسباني للانتقام من سكان منطقة بني حسان، إبان أحداث شهر غشت ١٩٢٧م، عند الحصار الأخير، حيث حوصر حوالي ١٠٠٠ مقاتل من كافة قبائل جبالة في جبل القلعة (جبل يقع بين بني حسان ومدينة شفشاون تابع لجماعة الواد)، ومعهم النساء والأطفال، فقامت المدافع الإسبانية باستهدافهم طيلة شهر، فاضطروا للاختباء في الكهوف ولم يقتل منهم أحد حتى تفرقوا في القبائل، وقلة منهم ذهبوا إلى جبل العلم عند ضريح مولاي عبد السلام ليحتموا من بأس الاستعمار[٤٠].

خَاتِمَةٌ

لعلّ هذا التركيب أعلاه قد أزاح الحجاب شيئًا ما عن تاريخ القبيلة، محاولا فهم طبيعة المسار التاريخي الذي مرّت منه وهي في طريقها لبلورة هويتها الحالية، وبفهم هذا المسار النموذج، يلقي بظلاله لفهم باقي القبائل التي اقتربت تجربتها التاريخية من تجربة بني حسّان، فهذه الأخيرة عرفت عملية تمازج ثقافي طويلة الأمد بين الروافد المتعددة لأصول سكانها، فلا تاريخها الأمازيغي البعيد قد اختفى، ولا لغتها العربية قد شملت كلّ التعابير والأسماء، بل إنّ الثقافة الأندلسية هي الأخرى حاضرة ولكن بشكل متخفّي منصهر مع العناصر السابقة، لتشكّل هوية جبليّة معبّرة عن تجربة فريدة، بهذا تكون القبيلة أمازيغية الجغرافية (أغلب أسماء المواضع الجغرافية أمازيغية)، عربية العنوان (بني حسّان)، أندلسيّة الذاكرة (حيث يتداول سكان الكثير من مداشرها قصة هروب الأندلسيين من المَقاتل ومطاردات المملكة القشتالية وكيف اختاروا تلك القمم الشاهقة في جبال بني حسّان ليتحصّنوا من كلّ تهديد).

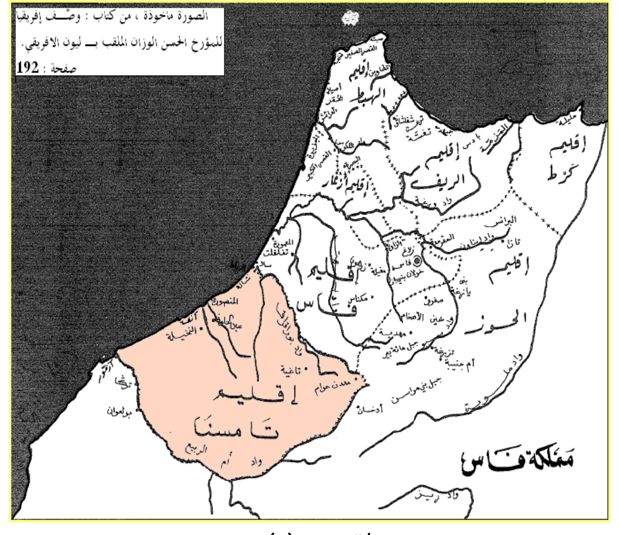
الملاحق



رسم توضيحي خريطة رقم (١)

القبائل المحيطة بقبيلة بني حسّان شمال غرب المغرب

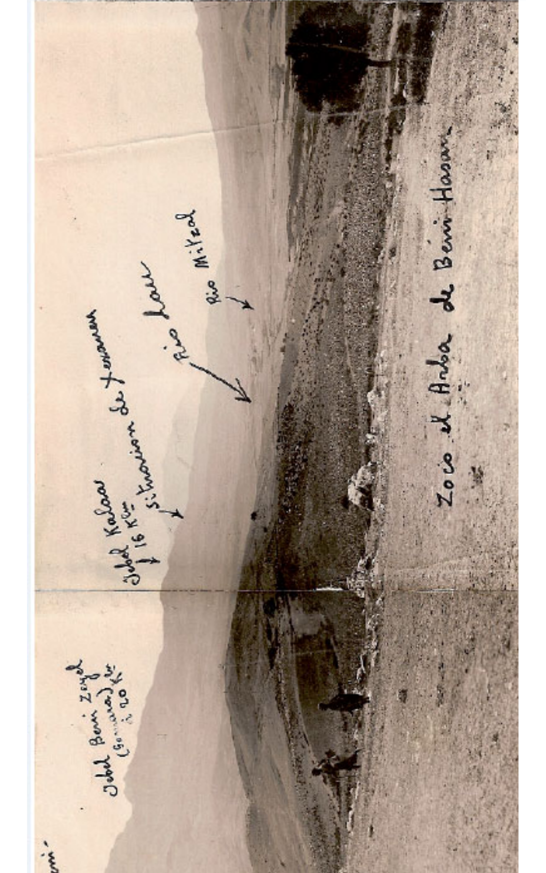
المصدر: خاص



رسم توضيحي خريطة رقم (٢)

تقسيم أقاليم المغرب خلال القرن السادس عشر الميلادي

المصدر: كتاب وصف إفريقيا



صورة رقم (١)

منطقة سوق الأربعاء بقبيلة بني حسّان سنة ١٩٢١م

المصدر: Cleccion de Carlos Bond, Tetuan 1921

الهَوامِشُ:

(١) **رواية شفوية**: عدل أصله من قبيلة بني حسان ومقيم بمدينة تطوان: ذ.عبد العزيز الكموط.

(٢) **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٩٩٢، ج٥، ص، ١٥١٨.

(٣) معاذ البكوري، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لقبائل غمارة ١٨٥٩-١٩٥٦م**، أطروحة دكتراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، ٢٠١٧-٢٠١٨، ص، ٢٠.

(٤) كان المجال الترابي لقبائل غمارة يمتد من الحدود الغربية للريف إلى ضواحي تطوان ووادي السطح بجبل العلم غربًا ويتسع نطاق حدودها جنوبا إلى المناطق القريبة من فاس، لكن هذا المجال تقلّص شيئًا فشيء بفعل عوامل عدّة، فأمسى ينحصر في المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من تطوان على ساحل البحر الأبيض المتوسط. انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢، ص، ج١، ٥٣٢. وأيضًا: التقي العلوي، "**أصول المغاربة القسم البربري؛ غمارة وحلفاؤها**"، **مجلة البحث العلمي**، ع ٣١، ص٢٧. بالإضافة إلى:عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، ص ٣٢٦-٣٢٦.

(٥) استعملت مصطلح الأمازيغ للدلالة على جميع القبائل التي استقرت بالمغرب منذ العصور القديمة، الذين أطلق عليهم الليبون في البداية ثم الموريون ثم البرابرة وتواضع أهل شمال إفريقيا اليوم على مصطلح الأمازيغ.

(٦) مقال: خالد غاوش، "**جرد القبائل المعمرة لمنطقة الغرب؛ بني حسن**"، /https://www.academia.edu، ص، ٩.

(٧) عبد الله البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ج٢، ص ٢٩٠

(٨) عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر، ج٦، ٢٨١.

(٩) انظر: **معلمة المغرب**، ج٥، ص، ١٥١٨.

(١٠) عبد المنعم سيد عبد العال، **لهجة شمال المغرب؛ تطوان وما حولها**، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص، ٤٥.

(١١) محمد داود، **تاريخ تطوان**، مراجعات وإضافات حسناء محمد داود، ج١١، مطبعة الخليج العربي، تطوان ٢٠٠٩، ص، ٢١.

(١٢) بلال الداهية، "العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية"، نشر ضمن **جريدة الشمال**، العدد ٨٠٤، الثلاثاء ٢٩ شتنبر إلى ٥ أكتوبر ٢٠١٥.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر السلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- تطاون/ جمعية تطاون أسمير، ج٦، ص، ١٤٦.

(١٥) المرجع نفسه، ص، ١٤٧-١٤٨.

(١٦) المرجع نفسه، ص، ١٢-١٣-١٤.

(١٧) بلال الداهية، "العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية".

(١٨) "جبل بني حسان شاهق المنال على العدو، إذ فضلاً عن طبيعة الأرض، يتميز رجاله بشدة البأس وعظيم الشجاعة، لم يتحملوا القمع من بعض مواطنيهم فنزعوا من أذهانهم كل كبرياء بقوة السلاح، وغيروا أحوال كثير منهم إلى وضعية حقيرة. ثم شاباً من بين هؤلاء الأشراف غضب لكونه أصبح محكوما من أتباعه القدامى، وامتلأ صدره حقدا عليهم، فذهب إلى إسبانيا وعمل فترة من الزمن أجيرا في خدمة النصارى إلى أن أصبح محاربًا محنكا. وبعد ذلك رجع وسكن أحد هذه الجبال الذي التجأ إليه أتباعه، فجمع عددًا لا يستهان به من الفرسان ودافع عن الجبل ضد تحرشات البرتغاليين، (...) أقره (الملك) على حكم شفشاون وناحيتها، وهكذا أصبح حاكمها الشرعي (...) يدعونه باسمه واسم أسرته علي بن راشد". حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨٣، ج١، ص321.

(١٩) **معلمة المغرب**، ج٢، ص. ٤١٧٢.

(٢٠) "فمدينة الشاون كلها أندلسية ومؤسسها أندلسي وجبال بني حسان والاخماس وقبائل غمارة والحوز كلها أندلسية". محمد قشتيلو، **محنة الموريسكوس في إسبانيا**، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص. ١٩.

(٢١) **معلمة المغرب**، ج١، ص. ٣٣٦.

(٢٢) معاذ البكوري، المرجع السابق، ص. ٣٢-٣٣. انظر أيضا: محمد بن منصور، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨، ج١، ص. ٣٢٥.

(٢٣) رواية شفوية

(٢٤) وجاء في تقييد لبعض فقهاء قبيلة اسلاس ما يلي: "أما ما يقال عن الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون الذي يوجد ضريحه في دوار بني هلال قبيلة اسلاس من قبيلة بني حسان وهي إحدى قبائل شفشاون ولهذا يدعى بالحسوني جاء من قبيلة بني حسان والله أعلم وشارط في مدشر بني هلال فتزوج من عائلة الجمليين تسمى رحمة الجميلة فأنجب منها سيدي بن حسون" ولهذا الفقيه ضريحين ضريح في مدشر الهلاليين وضريح آخر في مدينة سلا التي انتقل إليها وتوفي فيها. انظر: عبد الكريم احميدوش، **"حياة ومسار الشيخ العلامة عبد الله احمد الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون"**، (http://taounate.net/archives/4038).

(٢٥) بالإضافة إلى أسرة الرايس الحسانية. انظر:أحمد الرهوني، **عمدة الراوين**، ج٣، ص. ١١١ و١٢٤ وص١٧٥.

(٢٦) شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، ص. ١٦.

(٢٧) نفسه، ص ١٧.

(٢٨) أوجست موليراس، **المغرب المجهول**، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، ج٢، ص. ٦٧٣-٦٧٤.

(٢٩) أكلة محليّة تصنع بالفول المجفّف يغلىّ في الماء ويضاف إليه زيت الزيتون والثوم.

(٣٠) نفسه، ص. ٦٧٥.

(٣١) طائفة كان مركزها بجبل العلم بجوار قبيلة بني حسّان، كانوا ينادون بالمتسولين ونبذهم المغاربة بسبب اللباس الذي كانوا يرتدونه وسلوكهم في الحياة.

(٣٢) المرجع السابق، ص. ٦٧٤.

(٣٣) نفسه، ص ٦٧٥.

(٣٤) **معلمة المغرب**، ج٦، ص. ١٩٥٠.

(٣٥) بلال الداهية، **"العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية"**.

(٣٦) محمد داود، **مختصر تاريخ تطوان**، مراجعة وتنقيح حسناء داود، المسارة، ٢٠٠٨، ص. ٤٣١.

(٣٧) محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج١١، ص. ٢٣٧-٢٣٨.

(٣٨) محمد علي داهش، **المغرب في مواجهة إسبانيا ١٩٠٣-١٩٢٧**، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص. ١٠٨-١٠٩.

(٣٩) **معلمة المغرب**، ج٢، ص. ٤٦١.

(٤٠)رواية الشفوية، عبد العزيز الكموط.